من الشعر إلى الكتابة

ملكة الانشاء . إنشاء الجامعة المصرية . تاريخ آداب العرب . إعجاز القرآن . حديث القمر . شيوخه فى الأدب

بلغ الرافعى الشاعر مبلغه بعد سنة ١٩٠٥ ، ونزل منزله بين شعراء العصر ، وجرت ريحه رُخاء إلى الهدف المؤمَّل ، فامتدّ نظره إلى جديد ...

وأخذ يروض قلمه على الإنشاء ، لعله يبلغ فيه مبلغه فى الشعر ، فأنشأ بضع مقالات مصنوعة فتنته وملكتْ إعجابه، فتهيأ لأن يصدر كتاباً مدرسياً فى الإنشاء سماه « ملكة الإنشاء » يكون نموذجاً للمتأدبين وطلاب المدارس ، يحتذون فنّه وينسجون على منواله ، ووعد قراءه أن ينتظروه . وأحسبه كان جادًّا فيما وعد ، لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه ، فظل الوعد قائماً بينه وبين قرائه حتى نسيه ونسوه .

ولا أحسب أن شيئاً ذا بال قد فات قراء الرافعى بعدم نشر هذا الكتاب ؛ وحسْب الأدباء والباحثين فى التاريخ الأدبى أن يقرءوا من هذا الكتاب الذى لم ينشر ، مقالاتٍ ثلاثاً نشرها الرافعى فى الجزءين الثانى والثالث من ديوانه ، وفى الجزء الأول من ديوان النظرات ؛ إعلاناً ونموذجاً لكتابه ؛ فإن فى هذه المقالات الثلاث كل الغَناء للباحث ، تدله على أول مذهب الرافعى فى الأدب الإنشائى ، وطريقته ومنهجه[1] .

---

(١) تقرأ فى الجزء الثانى من الديوان ص ٦٧ « وصف البحر » وفى الجزء الثالث ص ٨٠ « رسالة فكاهية » وفى ديوان النظرات ص ٩٢ « الحسن المصنوع » .

إنشاء الجامعة المصرية

قلت : إن الرافعي كان جاداً فيما وعد بإصدار كتابه « ملكة الإنشاء » لولا أمور نشأت من بعد وصرفته عن وجهه . فهذا كان يوم إنشاء الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٧

كان قد مضى على الرافعي يومئذ عشر سنين فى مدرسته التى أنشأها لنفسه ، وكان فيها المعلمَ والتلميذ ، يدرس ويطالع ويتعلّم ، لا يرى أنه انتهى من العلم إلى غاية ؛ وما كان يدرس ليكون عالماً فى الأدب ، أو راوياً فى التاريخ ، أو أستاذاً فى فرع من فروع المعرفة ؛ إنما كان يدرس ليتزوّد للشعر زادَه ، وليبلغ من العلم مبلغاً يعينه على أن يقول وينشىء . فلما أنشئت الجامعة المصرية ، تطلّع إلى ما يقال هناك فى دروس الأدب ، لعله يجد فيه الجديد الذى يتشوّف إليه ويطلبه ؛ فماذا وجد هناك ؟

مضى على إنشاء الجامعة سنتان وما استحدثت شيئاً فى الأدب يفتقر إليه الرافعي ، وما تحدث أساتذتها حديثاً فى الأدب لا يعرفه الرافعي . ماذا ؟ أهذا كل ما هناك ؟ ... وأيقن الرافعي من يومئذ أنه شيء ، فلبث يتربص ...

وطال انتظار الرافعي وما استطاعت الجامعة أن تثبت له أن فيها دروساً للأدب ، وما استطاع الرافعي أن يقنع نفسه بأن فى الجامعة أساتذة يدرسون الأدب ؛ فكتب مقالاً فى (الجريدة) يحمل على الجامعة ، وعلى أساتذة الجامعة ، وعلى منهج الأدب فى الجامعة . ورنّ المقال رنينه وأحدث أثره ، فاجتمعت اللجنة الفنية للجامعة ، ونشرت دعوة على الأدباء إلى تأليف كتاب فى (أدبيات اللغة العربية) جعلت جائزة الفائز فيه مائة جنيه ، وضربت أجلاً لتقديمه إليها سبعةَ أشهر .

وقرأ الرافعي دعوة الجامعة ، فما رضي ولا هدأت نفسه ؛ لقد كان أمله يومئذ أكبر من ذلك ؛ إن مائة جنيه شيء مُغْرٍ لمثل الرافعي الأديب الناشئ ، والموظف

الصغير ، والزوج العائل ، أبى وهيبة وسامى ومحمد ؛ ولكنه كان يطمع فى أكثر من مائة جنيه ، يطمع فى أن يكون هو أستاذ الأدب بالجامعة . « إنهم على الأغلب سيعهدون بتدريس الكتاب لغير مؤلفه ، فيكون الحاضر لديهم كالغائب عنهم ، ولا فضل لدارهم إلا أنها مصدر التلقين ؛ فإذا طبع الكتاب صارت كل مكتبة فى حكم الجامعة ، لأن العلم هو الكتاب لا الذى يلقيه ، وإلا فما بالهم لا يعهدون بالتأليف لمن سيعهدون إليه بالتدريس ؟ وهل يقتصرون على أن يكون من كفاية الأستاذ القدرة على إلقاء درسه دون القدرة على استنباط الدرس واستجماع مادته حتى لا يزيد على أن يكون هو بين تلامذته التلميذ الأكبر . . ؟

« لِمَ تنفض إدارة الجامعة يدها من قوم هم رؤساء الصناعة ، وظهور مناصبها العالية ، وألسنة الحكم فيها ؛ ثم تلتمس من ضعف الأفراد ما لم تؤمله فى قوة الجماعة ، وهى تعلم أن الحمل الذى تتوزعه الأكفّ يهون على الرقاب[1] ؟ »

وما سبعة أشهر لمن يريد أن يؤلف فى تاريخ آداب العرب ؟ إنه فن لم يتناوله أحد من قبل ، وإن مراجع البحث لكثيرة ، وإن من ورائها ذلك جهداً لا يطيقه إنسان!

وكتب الرافعى مقاله الثانى فى (الجريدة) ينعت الجامعة ولجنة الجامعة ، ويتأبّى على الدعوة التى دعتْ ، ويقرر أن الذين دعوا الدعوة إلى وضع الكتاب وجعلوا لذلك العمل إلى فِصاله سبعة أشهر ، إنما مست بهم الحاجة إلى كتاب وأعوزهم مؤلفه ، فالتمسوه بتلك الدعوة يفتشون عنه فى ضوء الجائزة . . . ومضى الرافعى يتجنى ويتدلل ، وعادت الجامعة تفكر فى الأمر .

وأعادت نشر السابقة لتأليف الكتاب ، وزادت المدةَ إلى سنتين ، والجائزةَ إلى مائتين ، وتعهدت بطبع الكتاب المختار .

ووجد الرافعى بذلك ما يشغله ، فعاد إلى نفسه ، وأغلق دار كتبه عليه ...

---

(١) ما بين القوسين من مقال الرافعى بنصه

تاريخ آداب العرب

إن كثيراً من الأدباء لا يرضيهم أن يعترفوا للرافعي بيد على العربية أو يروا له صنيعاً فى الأدب يستحق الخلود ، إلا حين يذكرون كتابه « تاريخ آداب العرب » وإنه لكتاب حقيق بأن يذكر فيذيع فضل الرافعي على الأدب والأدباء .

انقطع الرافعي لتأليف كتابه من منتصف سنة ١٩٠٩ ، إلى آخر سنة ١٩١٠ ، وفى سنة ١٩١١ أتم طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذى عينته الجامعة لم يكن الرافعي طامعاً فى جائزة الجامعة . ولذلك لم يتقدم إليها به قبل طبعه ، ترفعاً عن قبول الحكم فيه لجماعة ليس منهم من هو أبصرُ منه بالمحكوم فيه .

وكان أسبق المؤلفات ظهوراً إلى دعوة الجامعة ، الجزء الأول من كتاب العلامة جورج زيدان ، ثم الجزء الأول من تاريخ آداب العرب . « سبقه ذاك بشهر أو شهرين سبقاً مطبعياً[1] »

وكانت مقالات الرافعي فى (الجريدة) ، وكتابه « تاريخ آداب العرب » من بعد ، هما السبب فى تدريس الآداب العربية وتاريخها فى الجامعة المصرية ، وهما السبب كذلك فى وضع ما وضع من الكتب فى هذا العلم .

وأعان الرافعيَّ على جمع ما جمع من وسائل البحث لكتابه مكتباتٌ ثلاث ، كلها حافل بالنادر من كتب العربية ، مطبوعها ومخطوطها ، هى : مكتبة الرافعى ، ومكتبة الجامع الأحمدى ، ومكتبة القصبى[2] .

---

(١) حكاه الرافعي

(٢) هى للكتبة التى أنشأها وجمعها المرحومان الحسيبان الشيخ إمام القصبي وولده الشيخ محمد القصبي شيخا الجامع الأحمدى قبل المرحوم الشيخ الظواهرى الكبير

وقد حدثنى عنها أبى ، كما حدثنى عنها المرحوم الرافعى ، أنها مكتبة حافلة ، مشحونة بفرائد العلوم والفنون ، زاخرة بنوادر المخطوطات والمطبوعات من كتب الدين والعربية ؛ وهى الآن محبوسة فى حجرة رطبة لا ينفذ إليها الهواء ، من حجرات زاوية القصبي بطنطا ، لم يفتح بابها منذ ربع قرن أو يزيد ، لعدم عناية القائمين عليها وجهلهم قدرها ، فاذا لم يكن السوس قد أتى عليها ، فان هناك فرصة لا تزال لانقاذ ما يمكن إنقاذه منها ، وحسب العربية ما لقيت من أهلها فى عصور الجهل والانحطاط

وكان من وسائل تشجيعه على إتمامه وطبعه ، ما أعانه به مدير الغربية الأديب المرحوم محمد محب باشا من معونات أدبية ومادية ...

ليس من همى هنا أن أتحدث عن القيمة الأدبية لكتاب الرافعى (تاريخ آداب العرب) ؛ فقد فرغ الأدباء من الحكم عليه ، وما منهم إلا له فيه رأى محمود وثناء مستطاب ؛ وما ناله أحد بنقد إلا الأديب طه حسين الطالب بالجامعة المصرية ، إذ يقول فى مقال نشرته له (الجريدة) سنة ١٩١٢ : «... هذا الكتاب الذى نشهد الله على أننا لم نفهمه ... » لكنه عاد فصحح رأيه فيه سنة ١٩٢٦ ، فاعترف بأنه لم يعجبه أحد ممن ألفوا فى الأدب إلا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى « فهو قد فطن لما يمكن أن يكون من تأثير القصص فى انتحال الشعر وإضافته إلى القدماء ، كما فطن لأشياء أخرى قيِّمة وأحاط بها إحاطة حسنة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب العرب[1] ... » .

نال الرافعى بكتابه هذا مكاناً سامياً بين أدباء عصره ، وشغل به العلماء وقتاً غير قليل ؛ وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد بك (باشا) أسبوعاً يخطب عنه فى مجالس العاصمة[2] وقد كتب عنه مقالاً ضافياً فى الجريدة جاء فيه : « قرأنا هذا الجزء ؛ فأما نحوُه فعليه طابع الباكورة فى بابه ، يدل على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً ؛ وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل ... وأما أسلوب الرافعى فى كتابته فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى ألفاظاً سابغة مفصلة عليها ، لا طويلة تتعثر فيها ولا قصيرة عن مداها تودى ببعض أجزائها ... »

وكتب عنه الأمير شكيب أرسلان (وهو أشهر كتاب العربية فى ذلك الوقت)

---

(١) ص ٩٠ ، ٩١ فى الشعر الجاهلى ، ص ١٥٢ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين بك

(٢) عبارة الأستاذ لطفى السيد باشا إلى الرافعى

مقالة فى صدر المؤيد جاء فيها: «لو كان هذا الكتاب خطأً محجوباً فى بيت، حرام إخراجه للناس منه، لاستحق أن يُحَجَّ إليه؛ ولو عُكِف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار، لكان جديراً بأن يعكف عليه ... »

وقال عنه المقتطف: « إنه كتاب السَّنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب.

وأسلوب الرافعى فى هذا الكتاب أسلوب العالم الأديب، يجد فيه كل طالب طلبته من العلم والأدب والبيان الرفيع، وكان الرافعى يومئذ قد أتم الثلاثين ... !

وفى السنة التالية، أصدر الرافعى الجزء الثانى من تاريخ آداب العرب، وموضوعه إعجازُ القرآن، والبلاغةُ النبوية؛ وهو الذى أصدره من بعد فى طبعته الثانية باسم « إعجاز القرآن »، وباسمه الثانى يعرفه قراء العربية، وقد طبعه على نفقته المغفور له الملك فؤاد رحمه الله. وفى مكتبة الرافعى الآن أصولُ الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، ومعها تعليقات كان ينوى إضافتها إلى الجزء الأول فى طبعته الثانية فعاجلته المنية.

* * *

هل كان للرافعى خيرَة فى المذهب الجديد الذى ذهب إليه عند ما شرع يكتب « تاريخ آداب العرب »؟

وهل كان يعنى ما يفعل حين انحرف عن الهدف الذى كان يسعى إليه فى إمارة الشعر، إلى المنحى الجديد فى ديوان الأدب والإنشاء!

هل كان عن قصد ونيةٍ أن يتخلَّى الرافعى عن أمانى الشباب وأوهام الصبا وأخيلة الفتيان وأحلام الشعراء، ليقف نفسه على العربية وتراث العربية يستبطن أسرارها ويغوص على فرائدها، وعلى الإسلام وأبطال الإسلام يكشف عن مآثرهم وينشر آثارهم؟ ...

الحق أن الرافعى لم يكن له خِيرة فى شىء من ذلك، ولا كان يعنيه، ولا توجهت إليه نيته؛ ولكنه ألّف تاريخ آداب العرب لأنه وجد فى نفسه رغبة إلى أن يؤلف

فى تاريخ آداب العرب ، وكتب فى إعجاز القرآن لأن إعجاز القرآن باب فى تاريخ الأدب ؛ فلما أخرج كتابيه إلى الناس، لم يلبث أن ارتد إليه الصَّدى مما يقول الناس ؛ فإذا هو عند أكثرهم أديب ليس مثله فى العربية ، وإذا هو كاتب من الطراز الأول بين كتاب العربية ، وإذا هو صاحب القلم الذى يكتب عن إعجاز القرآن فيعجز ، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن إلى المؤمن ، حديثَ قلب إلى قلب ليس بينهما حجاب فكلُّ ما ينطق يبين ... ووجد الرافعى كأنما اكتشف نفسه !

وهنا بدأ الرافعى الكاتب الذى يعرفه اليوم قراء العربية ، على حين أخذ الرافعى الشاعر يتصاغر ويختفى رويداً رويداً حتى نسيه الناس أو كادوا ، لا يتحدثون عنه إلا كما يتحدثون عن شاعر استمعوا حيناً إلى أغاريده العِذاب ، ثم ترك دنياهم إلى العالم الثانى ليتحدث إليهم من صفحات التاريخ ...

لقد عرف الرافعى من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء الجيل ، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر وبها أجدر ؛ فجعل الهدف الذى يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال ؛ وأن ينفخ فى هذه اللغة روحاً من روحه يردُّها إلى مكانها ويردّ عنها ، فلا يجترئ عليها مجترئ ولا ينال منها نائل ولا يتندر بها ساخر ، إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف عن دخيلته

ونظر فيما يكتب الكُتاب فى الجرائد ، وما يتحدث به الناس فى المجالس ، فرأى عربية ليست من العربية ، هى عامية متفاصحة ، أو عجمة مستعربة ، تحاول أن تفرض نفسها لغةً على أقلام المتأدبين وألسنتهم ، فقرّ فى نفسه أن هذه اللغة لن تعود إلى ماضيها المجيد حتى تعود (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الكتاب وينشئ الأدباء ؛ وما يستطيع كاتب أن يشحذ قلمه لذلك إلا أن يتزود له زاده من الأدب القديم .

وعاد الرافعى يقرأ من جديد ، ينظر فيما كتب الكتاب وأنشأ المنشئون فى مختلف عصور العربية ، يبحث عن التعبير الجميل ، والعبارة المنتقاة ، واللفظ الجزل ، والكلمة النادرة ، فيضيفها إلى قاموسه المحيط ومعجمه الوافى ، لتكون له عوناً

على ما ينشئ من الأدب الجديد الذى يريد أن يحتذيه أدباء العربية .

* * *

هذا سبب مما عدل بالرافعى عن مذهبه فى الشعر إلى مذهبه الجديد فى الأدب والإنشاء . وثمة سبب آخر كان الرافعى يصرح به كثيراً لمن يعرفه : ذلك أنه كان يرى فى الشعر العربى قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن العواطف المضمرة فى نفسه . هكذا كان يقول هو ، وأقول أنا : إنه كان يعجز أن يصب فى قصيدة من الشعر ما كان يستطيع أن يكتبه فى سهولة ويسر مقالاً من مقالاته الشعرية الرائعة التى يعرفها قراء العربية فيما قرءوا للرافعى . والحق أن الرافعى بطبعه شاعر فى الصف الأول من الشعراء ، لا أعنى الشعر المنظوم ، فذلك ميدان سبقه فيه كثير من شعراء العصر ، بل أعنى الشعر الذى هو التعبير الجميل عن خلجات النفس وخطرات القلب ووحى الوجدان ووثبات الروح . ولقد كان — رحمه الله — بما فيه من اعتداد بالنفس ، يكتب المقال الفنى المصنوع ، فيقيس لفظه بمعناه ، ويربط أوله بآخره ، ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه من معانى السرور والألم ، والرجاء واليأس ، والرغبة والحرمان ؛ فإذا فرغ من إنشائه جلس يترنم به ويعيده على سمعه الباطن ، ثم لا يلبث أن يلتفت إلى جليسه قائلاً : « أسمعت هذا الشعر ؟ أرأيت شاعراً فى العربية يملك من قوة البيان ما يجمع به كل هذه المعانى فى قصيدة منظومة ... ؟ »

هذه العبارة التى كان يسمعها جلساء الرافعى كثيراً ، تفسر لنا قول الرافعى إن فى الشعر العربى قيوداً لا تتيح له أن ينظم بالشعر كل ما يريد أن يعبر به عن نفسه الشاعرة ، أو تؤيد ما أدعيه أنا ، من أنه كان يشعر بالعجز عن الإبانة عن كل خواطره الشعرية فى قصيدة من المنظوم ، ولا يعجزه البيان فى المنثور . نعم ، كان شعر الرافعى أقوى من أدواته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره . . .

أفترى فى العربية شاعراً يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من « أوراق الورد » فى قصيدة منظومة ، دون أن يتجيف المعنى ويختل الميزان ؟

لا أحسب أن الرافعى كان يعنى ما يقول حين يزعم أن القيود فى الشعر العربى من أسباب الضعف فى الشعر ؛ فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يجهر بهذا الرأى ، بل أحسبه فى بعض نقداته الأدبية أنكر مثل هـذا القول على أديب من الأدباء وراح يتهمه بمحاولة الغض من قدر الشعر فى العربية ؛ فما أراه كان يقول ذلك إلا تعبيراً عن معنى تأبى كبرياؤه الأدبية أن يصرح به .

* * *

ذلك هو السبب الثانى الذى عدل بالرافعى عن الاستمرار فى قرض الشعر معنياً به مقصوراً عليه .

لم يهجر الرافعى الشعر هجراً باتاً بعد أن اتخذ لنفسه هذا المذهب الجديد ، ولـكنه لم يجعل إليه كل همه ، واتجه بقلبه ولسانه إلى الهدف الجديد ، فلا يقول الشعر إلا بين الفينة والفينة إذا دعته داعية من دواعى النفس أو من دواعى الاجتماع . وسنرى فيما سيأتى بعد ، أنه قد صبا إلى الشعر ثانية عند ما مس الحب قلبه واتقدت جذوته فى أعصابه سنة ١٩٢٣ ، فدعته نفسه ؛ وعند ما اتصل ببلاط الملك فؤاد — رحمه الله — سنة ١٩٢٦ ، فدعته داعية الجماعة .

حـــديث القمر

قلت إن الرافعى بطبعه كان شاعراً ، ولـكن شعره كان أقوى من أداته ، وكانت قوالبه الشعرية تضيق عن شعوره، فنزع إلى النثر الفنى . وقلت إنه كان يرمى إلى أن يعيد (الجملة القرآنية) إلى مكانها مما يكتب الـكتاب وينشئ الأدباء، لتعود اللغة على أولها فصيحة جزلة مبينـة ، وإنه أخذ على نفسه أن يكون نموذجاً فى هذا الأدب الجديد يحتذيه أدباء العربية . وقدمت فى أول هذا الفصل أن الرافعى كان على نية إصدار كتاب مدرسى سماه (ملـكة الإنشاء) يكون عوناً للمتأدبين

وطلاب المدارس على الاقتباس لإجادة الإنشاء . فذلك بعض ما دفعه إلى إصدار كتابه « حديث القمر » من بعد

وقد أنشأ هذا الكتاب بعد رحلة إلى لبنان فى سنة ١٩١٢ ، عرف فيها شاعرة من شواعر لبنان ، وكان بينها وبين قلبه حديث طويل فى الحب ؛ فلما عاد من رحلته ، وجد فى نفسه حاجة إلى أن يقول فقال ، فكان حديث القمر !

وهو أول ما نشر الرافعى من أدب الإنشاء ؛ أصدره بعد كتابيه : تاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن . وما بى أن أصفه لقراء العربية ، فهو مشهور متداول . وهو أسلوب رمزىّ فى الحب ، على ضرب من النثر الشعرى ، أو الشعر النثرى ؛ يصف من عواطف الشباب وخواطر العاشق وما إليهما فى أسلوب فنى مصنوع لا أحسبه مما يطرب الناشئين من قراء العربية فى هذه الأيام ، إلا أن يقرءوه على أنه زاد من اللغة ، وذخر من التعبير الجميل ، ومادة لتوليد المعانى وتشقيق الكلام فى لفظ جزل وأسلوب بليغ

ومن هذا الكتاب كانت أول التهمة للرافعى بالغموض والإبهام واستغلاق المعنى عند فريق من المتأدبين ؛ ومنه كان أول زادى وزاد فريق كبير من القراء الذين نشئوا على غرار فى الأدب لا يعرفه ناشئة المتأدبين اليوم

شيوخه فى الأدب

أما إذ وصلت إلى هذا المكان من تاريخ الرافعى فإنى أسأل نفسى : عمن أخذ الرافعى هذا المذهب فى الكتابة ، وبمن تأثر من كتاب العربية القُدامى والمحدثين ؟

هذا سؤال لا أجد جوابه فيما حدثنى به الرافعى أو أحد من أهله وصحابته ؛ وما أستطيع أن أثبت شيئاً فى هذا المقام يعتمد عليه الباحث . وأكبر ظنى أن الرافعى نفسه كان لا يعرف أستاذه فى الأدب والإنشاء ؛ فما كان همه أول همّه أن يكون

كاتباً أو منشئاً ، ولكن تطورات الزمن هى ردّته من هدف إلى هدف وألزمته أن يكون ما كان . وقد قرأ الرافعى كثيراً وأخذ عن كثير ، فمذهبه فى الكتابة من صنع نفسه، وهو ثمرة درس طويل وجهاد شاق، اختلطت فيه مذاهب بمذاهب، وتداول عليه أدباء وأدباء من كتاب العربية الأولين . ولكنى أجد من الفائدة هنا أن أشير إلى اثنين من أدباء العربية كان يقرأ لهما الرافعى أكثر ما يقرأ إلى آخر أيامه : هما الجاحظ وصاحب الأغانى ، وكان يعجب بأدبهما ويعجب لإحاطتهما عجباً لا ينقضى وإعجاباً لا ينتهى ، وكان لا بد له حين يهم بالكتابة بعد أن يجمع عناصر موضوعه فى فكره أو فى مذكرته — أن يفتح جزءاً من الأغانى ، أو كتاباً من كتب الجاحظ يقرأ فيه شيئاً مما يتفق ، ليعيش فترة ما قبل الكتابة فى جو عربى فصيح .

وأحسبه إلى ذلك قد تأثر كثيراً فى صدر أيامه بما كان يكتب الشيخ إبراهيم اليازجى صاحب مجلتى « الضياء والبيان »

ومما لا يفوتنى إثباته فى هذا المجال أن مجلة (الهلال) قد استفتت أدباء العربية يوماً منذ سنوات ، فى أى الكتب العربية تعين الأديب الناشئ على مادته ؟ وكان للرافعى فى هذا الاستفتاء جواب لا أذكره ، أحسبه يفيد الباحث عن المصدر لأدب الرافعى

وسمعته مرة يقول : إن كلمة قرأتها لفكتور هوجو كان لها أثر فى الأسلوب الأدبى الذى اصطنعته لنفسى : قال لى الأستاذ فرح أنطون مرة : إن لهوجو تعبيراً جميلاً يعجب به الفرنسيون كل الإعجاب ، قوله يصف السماء ذات صباح : « وأصبحت السماء صافية كأنما غسلتها الملائكة بالليل »

قال الرافعى « وأعجبنى بساطة التعبير وسهولة المعنى ، فكان ذلك حذوى من بعد فى الإنشاء »

أفيحق لنا بهذا أن نزعم أننا عرفنا واحداً من شيوخ الرافعى فى الأدب والإنشاء ... !